نظر طرفة بن العبد إلى خصمه ، فصوّر أخلاقه من وشاية ونميمة فقال فيه يتشفى وينتقم :

وَفرّقَ عنْ بيتيك سَعدُ بنُ مالك وَعمراً وَعوْفاً ما تشى وَتقولُ
وأنتَ على الأدنى شمالٌ عَرِيةٌ(١) شآميةٌ تزوى الوجُوهَ بليلُ

فقصّ علينا كيف فرّق بين بيتى أهله وذويه ما كان يأتيه من أقوال يتقولها ونمائم يسعى بها ، ويمشى بين العشيرتين حتى فرّق الجمع وأوقع الشرّ ، وهو على أقاربه كالريح الشمالية الباردة تحرق الوجوه إذا هبطت فى الشتاء ، ويصحبها بللٌ من المطر ، وَندى يقبضُ الجلد ويجفف المفصل والوجه .

وقال مُساور بن هند فى هجاء بنى أسد يصفهم بالذلّ والهوان :

زَعمتم أن إخوَتكم قريشٌ لهم إلفٌ وليس لكم إلافُ
أولئك أومنوا جوعاً وخوفاً وَقدْ جَاعَتْ بنو أسد وَخافوا

يُخاطب بنى أسد ، ويكذب دعواهم فى انتمائهم إلى قريش ، وتنسّبهم بالقربى منهم ، والواقع أن لقريش إيلافاً فى رحلتى الشتاء والصيف وليس لبنى أسد مثلهم ، فأولئك آمنهم الله من الجوع والخوف ، وهؤلاء جائعون خائفون .

وفى كتاب « الحماسة » شعرٌ يشبه هذا الذى أوردنا ، يندّد بالجبن والقعود عن القتال ، والسكوت على الضيم ، ويصف المهجوّين بالنعام تتسابق فى الهرب ، وتطلب النجاءَ لنفسها ، مفلولة مغلوبة ، ذليلة حين تُجردُ السيوف عليهم من أغمادها ، فيقول شاعرهم فى خصْمه :

غدرتَ بأمر كنتَ أنتَ اجتذبتنا إليه وبئس الشيمة الغدرُ بالعهد
وقد يَترُك الغدرَ الفتى وطعامهُ إذا هو أمسى جُله منْ دَم الفصْد

فهو يُشير إلى أمر خطير يحتقره العرب وهو الغدر ونكث العهد ، والفتى يؤثر الإقامة على الوفاء مع شدة الفاقة ، ويطلب اكتسابَ المحمدة وإن كان مسكيناً ذا مَتْربة ، حتى إذا أمسى كان جل طعامه فصيدَ الدم . والهجّاءون يندّدون بالغدر أبداً ، وسوء الجوار ، فيقول شاعرهم :

---

(١) العرية : الباردة ، شآمية : من ناحية الشام .